لحظات التجلي

للاستاذ احمد امين

لكل انسان ـ وخاصة العقليين والروحانيين ـ لحظات تضيء فيها نفوسهم، حتى كأنها المرآة الصافية، أو الشعلة الملتهبة، كل جانب فيها مضيء، وكل العالم منعكس عليها، يراه فيها كما يرى السماء فى الماء.

يحس بهذا الاديب، فتراه حينا وقد غزرت معانيه وتدفقت عليه من كل جانب، حتى ليحار فى الاختيار، ماذا يأخذ وماذا يذر، وبم يفضل بعضها على بعض، وحتى كأنه يغترف من بحر، أو يملى عن حفظ، ويصدر عنه اذ ذاك القول السلس والمعانى الغزيرة، والشعر المتدفق، هذه اللحظات عنده هى « لحظات التجلى »، وتأتى عليه أوقات وقد جمدت قريحته، وأجدب فكره، يعانى فى البحث ما يعانى، ثم لا يأتى الا بجمأة وقليل ماء، ويصعب عليه القول كأنه يمتح من بئر، أو يستنبط من صخر، وقد عبر الفرزدق عن هذا المعنى فقال « أنا أشعر تميم، وربما أتت علىّ ساعة ونزع ضرس أسهل علىّ من قول بيت» ونتاجه فى مثل هذه اللحظات بارد جاف، لا يستسيغه الذوق، ولا تألفه الروح، اشبه شىء بقطع الجلاميد، وبأجذال الحطب

ويحس بهذا الفيلسوف، فيشعر بلحظات تنكشف فيها حقيقة هذا العالم، فيراها ويستلذها، ويود ان تدوم، بل يود أن تعاوده المرة بعد المرة، ويتمنى ان يشترى عودتها بكل ماملك، وينفق فى ساعة منها كل متع الحياة الدنيا، يشعر فى هذه اللحظات بذكاء فى الفهم، وصفاء فى النفس، ولطافة فى الحس، تكفيه فى فهم هذا العالم الاشارة، وتجزئه الايماءة، يستشف العالم من وراء مظهره، ويلمحه من رموزه، ويشعر اذ ذاك بسمو فى العقل، ورقى فى الروح، لا يعدل لذتهما شىء فى الحياة

ثم تذهب عنه لحظات التجلى على الرغم منه، فاذا به فى بعض أوقاته مظلم الحس، متخلف الذهن، بليد البصيرة، لا يتنبه للحن، ولا يفطن لمغزى، تستعجم عليه المدارك الظاهرة، وتخفى عليه الاشباح الماثلة. وتختلف لحظات التجلى عند الفلاسفة والصوفية كثرة وقلة، كما يختلف مدى التجلى بعداً وقربا، حتى ليحكى عن افلوطين، الفيلسوف الروحانى المشهور أنه حظى بهذه اللحظات بضع مرات فى حياته، وحظى بها تلميذه « فورفوريوس » مرة واحدة

وتعرض للفنان فيلهم معنى يصوره بريشته أو يوقع به على قيثارته، فتم الابداع والجمال الرائع، والحسن البارع، ذاك يملأ العين حسنا بصورته، وهذا يملأ السمع والقلب عذوبة بنغمته، ثم تأتى على هذا وذاك أوقات ينضب فيها معينهما، ويفتر عنهما وحيهما.

وترى العلماء من رياضى وطبيعى وكيماوى، يرزق أحدهم الحظوة بلحظة من هذه اللحظات، يلهم فيها فكرة يكون من ورائها مخترع عجيب، أو استكشاف خطير، عرض له أثناء بحثه، وقد لا تكون هناك علاقة ما بين ما يبحث فيه وبين ما ألهمه، بل لا تكون هناك مقدمات منطقية مطلقا لما ألهم، ويقف العلم حائراً لا يستطيع أن يعلل كيف نشأت فى ذهن هذا العالم تلك الفكرة، وكيف فطن لها، بل يحار المستكشف نفسه كيف عرضت له وكيف ألهم بها

وبعد فهل يمكن أن نضع قوانين لهذه اللحظات، وهل هناك عوامل معروفة اذا استوفيت أمكننا اقتناؤها والحظوة بها؟ وهل يمكن أن تجمع هذه الشروط فى زر كهربائى أو زر روحانى نفتحه فتتفتح علينا لحظات التجلى إن شئنا؟

لو استطعنا هذا لتضاعف الانتاج الادبى والعلمى فى هذا العالم أضعافا مضاعفة، ولسهل على الاديب أن يستوفى الشروط فما هو الا أن يمسك بقلمه فيغزر ماؤه، ويسيل أتيُّه، وتنثال عليه الألفاظ والمعانى انثيالا

لقد حاولوا من قديم أن يستكشفوا قوانين « التجلى » فقالوا ان مما يعين عليه جودة الغذاء ، وفراغ البال من هموم الحياة ، وصحة البدن ، وطمأنينة النفس ، واستعانوا على نيل لحظات التجلى بمختلف الألوان ، فقد قيل لكثير عزة يا أبا صخر ، كيف تصنع اذا عسر عليك قول الشعر؟ قال أطوف فى الرباع المخلية ، والرياض المعشبة ، فيسهل على أرضه ، ويسرع الىّ احسنه ، وقال الاخوص

وأشرفتُ فى نشز من الارض يافـــع

وقد تشعف الايفاع من كان مقصدا (١)

ولجأ الأدباء من قديم الى الأزهار والرياض ، والمياه الجارية والمناظر الجميلة ، كما لجأ بعضهم الى الخمر يستلهمها ويستوحيها ، وتكاد تكون لكل أديب عادة يرى أنها علة غزارته ، ومفتاح انتاجه ، وأنه يستمد بها تعصم من الافكار ، ويستسمح بها الابى من المعانى . ولكن هل نجحت كل هذه المحاولات فى استكشاف قوانين التجلى . ؟ أظن أن نظرة بسيطة تكفى للقول بأنها لم تنجح ، فقد تستوفى كل الشروط التى قالوها ، فالصحة فى أجود حالاتها ، والغذاء خير غذاء ، والكاتب أو الشاعر مطمئن النفس . هادىء البال ، بين الرياض المزهرة ، والمياه الجارية ، والوجوه الناضرة ، وهو مع هذا أجدب ما يكون قريحة . وأنضب ما يكون معينا ، ثم هو يكون على العكس من ذلك كله فيواتيه شيطانه ، وتتزاحم فى صدره المعانى ، وتتبارى على قلمه الآراء والافكار والالفاظ

ثم هذا أديب أو شاعر يجود قوله وتتجلى نفسه ، فى الاماكن الخالية والسكون العميق ، وذاك لا يتأتى له هذا الموقف إلا فى الأوساط الصاخبة والحركة المائجة . وأديب لا ينتج الا اذا امتلأ جيبه واطمأنت نفســـه لحاجات الحياة ، على حين أن الآخر لا يجيد الا اذا فرغ وطابه . وعضه الفقر بنابه ، وتكاثرت عليه الهموم .

فأين قوانين التجلى اذا كان يحدث فى البيئـــ ـددا ، والظروف وعكسها ؟ قد تكون كل المظاهر وكل ما يحيط بالنفس يؤذن بحال انقباض وجمود ، واذا النفس مع ذلك فياضة جياشة متجلية ، وقد تكون المظاهر كلها تدل على نفس متفتحة للعمل ، مليئة بالفكر فاذا هى جدبة منقبضة ، وترى الآراء القيمة والمعانى السامية قد تنبع من بيئة قاتمة . ونفس مظلمة كما تخرج الزهرة من طين ، أو كما يخرج الذهب من الرمال ، والحرير من الدود ، وقد حكى لنا عن أدباء أخرجوا روايات هزلية تستخرج الضحك من أعماق القلب وحالتهم النفسية وقت تأليفها كان يسودها الحزن ، ويشيع فى جوانبها الالم والبؤس

أخشى ان يكون الذين قد وضعوا هذه القوانين وأمثالها للحظات التجلى قد تسرعوا فى وضعها ، فالانسان معقد كل التعقيد ، ولئن كان جسمه معقدا مرة فنفسه وروحانيته وعقله معقدة الف مرة بل آلاف ، وإن العوامل التى تؤثر فى نفسه وروحانيته ليست الحالة البدنية ، ولا الغذاء الصالح ، ولا المناظر الجميلة ، ولا الغنى والفقر وحدها ، بل هناك عوامل أدق وأعمق وأغمض ، ان الانسان لا يعيش فى بدنه وحده ، ولا فى محيطه فقط ، بل إنه ليعيش فى أصدقائه الأقربين والأبعدين ، وإنه ليعيش فى آبائه الذين كانوا وماتوا ، وانه ليعيش فى ذريته الذين كانوا وسيكونون ، وانه ليعيش فى أحلامه وآلامه وآماله ، ويعيش فى شبكات من تموجات نفسية دونها بمراحل شبكات التلغرافات والتليفونات ، وتتسلط عليه أنواع من الأشعة لاعداد لها

لعلنا لا نستطيع أن نستكشف قوانين التجلى الا إذا عرفنا نوع النفس التى تتلقى هذه الأشعة ، وعلمنا كل هذه المؤثرات ، وهيهات !!

احمد امين .

(١) اليافع : المرتفع وشعفه الايفاع حركت نفسه وهاجت عواطفه والمقصد من البيت القصائد